مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٨) العدد (٣) ٢٠٢٤
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (8) No. (3) 2024

درجاتُ الحبِّ في رسالة طوقِ الحمامةِ لابن حزم الأندلسي

*د. صالح إبراهيم نجم

** راما عصام الحمصي

(تاريخ الإيداع ١/٢١ /٢٠٢٤. قُبِل للنشر في ٤/٤ /٢٠٢٤)

□ ملخّص □

يُعَدُّ الحبّ واحداً من أهمّ الإشكاليّات والقضايا الوجوديّةِ الكبرى التي شغلت فكر الإنسانِ الأوّلِ ولا تزال تشغله إلى يومِنا هذا؛ فالحبُّ عِلّة وجود العالم وحركته وكماله؛ وعليهِ فليس بمستهجَنٍ أن يشغلَ حيّزاً كبيراً من فكرِ الأدباءِ والفلاسفةِ والمفكّرين، وأن يحشدوا له المؤلّفاتِ الضّخمةَ ويضعوا له مصنّفاتٍ كثيرةً؛ وقد اختلف اهتمامُهم في الحبّ وتفسير ماهيّتِه؛ فمنهم من صبَّ اهتمامَه على بيانِ دوافعِه وأسبابه، ومنهم من اهتمّ بوضعِ الأطرِ النّظريّةِ لبيانِ ماهيّتِه وحدودِه، وبعضهم أعمل فكرَه في بيانِ درجاتِه لدى العاشقِ والمعشوق، وتُعدُّ تلك الأخيرةُ من الظّواهرِ اللّافتةِ في كتابِ طوقِ الحمامةِ؛ إذ أفردَ ابنُ حزمٍ جزءاً وافراً من مؤلّفه للتّكلّمِ على درجاتِ الحبِّ وإنْ لم يُفرِدْ لهذا الحديثِ باباً مستقلّاً.

الكلمات المفتاحيّة: درجات الحب–طوق الحمامة.

*مدرس اختصاص الأدب المملوكي والعثماني– قسم اللغة العربيّة– كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة– جامعة طرطوس– طرطوس– سوريا.

**طالب دراسات عليا (ماجستير)– قسم اللغة العربيّة– كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة– جامعة طرطوس– طرطوس–سوريا.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٨) العدد (٣) ٢٠٢٤
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (8) No. (3) 2024

Degrees of love in ibn Hazm Alandalusi´s message Tawq Al-Hamamah

*Saleh Ibrahim Najm
**Rama Essam AL.Homsy

(Received 21/1 /2024. 4 /4/2024)

□ ABSTRACT□

Love is considered one of the most important problems and major existential issues that occupied the thought of early man and continues to occupy him to this day, Love is the reason for the existence, movement, and perfection of the world. Therefore, it is not surprising that it occupies a large space in the thoughts of writers, philosophers, and thinkers, and that they compile huge works for it and compose many works for it,so their interest in love and the interpretation of its nature differed. Some of them focused their attention on explaining its motives and causes, and some of them were interested in developing theoretical frameworks to explain its nature and limits, and some of them worked their thoughts on explaining its degrees to the lover and the beloved, The latter is one of the striking phenomena in the book Tawq Al-Hamamah. Ibn Hazm devoted a large portion of his book to speaking about the degrees of love, even though he did not devote a separate chapter to this hadith.

keywords: Degrees of love-Tawq Al-Hamamah

*Professor , Department of Arabic , Faculty of Arts and Humanities , Tartous University , Tartous , Syria .

**Master's student, , Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tartous University , Tartous , Syria .

المقدّمة:

الحبّ حالة تصيب النّفسَ الإنسانيّةَ فتأسرها وتقيدها لذلك فإن معرفة حقيقة الحب تحتاج إلى فهم النفس، وقد بين ابن حزم أن النفس الإنسانية قد خلقت قبل خلق الله لآدم فخلقت النفس ثم الجسد فملكته وحلت به، كما قد اختلف الدارسون حول تحديد ماهية الحب وضبطها فقالوا وأطالوا، وقدعّرفه ابن حزم بقوله:"هو اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع"[١]

وابن حزم الأندلسي فيلسوف وعالم موسوعي من بين الذين حاولوا تحديد ملامح ظاهرة الحب، وتتبع مساراتها، وإظهار كيفية اشتغالها من خلال ما طرحه في رسالته طوق الحمامة في الإلفة والألاّف التي يعدها من العلماء مرجعية حقيقية ؛ فهو المعروف بصفاء الذهن ورهافة الحس ورقة المشاعر، وهو المهذب تهذيباً أرستقراطياً هذا فضلاً عن البيئة النسوية التي نشأ في كنفها فعملت على إرهاف حسه فكان من ذلك أن تفتحت حواسه ونفسه على أفانين الحب والجمال.

أمّا ما دفعني إلى اختيار هذا البحث هو أن ابن حزم من العلماء الذين طبعوا بصمتهم الاجتماعية والمعرفية على نتاجهم الأدبي، فضلاً عن إعجابي بتراثه الإنساني الأصيل المطعم بروح الإبداع والابتكار إضافة إلى شغفي بالعصر الأندلسي

كما يهدف البحث إلى تقديم رؤية جديدة لرسالة طوق الحمامة من خلال التفريق بين تنظير ابن حزم للحب وممارسته له ثم إعادة النظر في إشكالية الحب

وسيعتمد على المنهج التكاملي لحاجتنا إلى عدة مناهج؛ فهو منهج ذاتي موضوعي يقوم على الأخذ من المناهج كافة، فقد استفدنا من المنهج التحليلي بوصف ظاهرة الحب وتحليلها في الطوق ونستعين بالمنهج التاريخي في تتبع الظاهرة التاريخية ومحاولة تأصلها كما نلجأ إلى احتمالية الاستعانة بالمنهج الاجتماعي في تحليل بعض المواقف، وتفسير بعض النتائج لذلك يرى البحث أنه المنهج الأنسب في خدمة الهدف المؤمل من البحث.

الدراسات السابقة:

١-تجليات السرد في الخطاب النثري العربي القديم طوق الحمامة لابن جزم الأندلسي انموذجاً إعداد:الطالب بويش منصور إشراف:الدكتور مكاوي خبرة جامعة عبد الحميد بن باديس في الجزائر كلية الآداب والفنون ٢٠١٣_٢٠١٤.

٢-شعرية النثر طوق الحمامة أنموذجاً: إعداد الطالبة: دانا عبد اللطيف سليم حمودة إشراف الدكتور محمد خليل الخلايلة جامعة الشرق الأوسط كلية الآداب والعلوم ٢٠١١-٢٠١٢.

٣-رسالة في العشق:ابن حزم الأندلسي،تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون،الجزء الثالث،ط١،مكتبة الخانجي مصر ١٣٩٩_١٩٧٩.

<u>تمهيد: مفهوم الحبّ لغةً واصطلاحاً:</u>

[١]-طوق الحمامة: ابن حزم الأندلسي،تعريف وتقديم الأستاذ ابراهيم الابيّاري،القاهرة مصر عام ١٣٨٣-١٩٦٤م

يعرَّفُ الحبُّ لغةً على أنّه نقيضُ البغضِ، "والحبُّ: الودادُ والمحبّةُ" ، والحبُّ في أصلِ دلالتِه الوضعيّةِ مستَمدٌّ من اللّزومِ والثّباتِ؛ جاءَ في مقاييسِ اللّغةِ: "إنَّ البعيرَ الذي يعسرُ فيلزم مكانَه، ويسمّى المحبّ والأحباب في الإبلِ مثل الحران في الدّوابّ" ، والحِبُّ (بكسرِ الحاءِ) بمعنى فرط الحبّ أو شدّته، ويُقالُ: حَبَبْتُ فلاناً بمعنى أصبْتُ حبّةَ قلبِه نحوَ شغفْتُه وكبدتُهُ وفأدتُه، ويُقال: أحببْتُ فلاناً إذا جعلتُ قلبي معرّضاً لحبّه . [٣]

أمّا وفق الدّلالةِ الاصطلاحيّةِ فيُعرَّفُ على أنّهُ ميلٌ إلى الأشخاصِ أو الأشياءِ الجذّابةِ أو النّافعةِ، وهو يهدفُ إلى إرضاءِ الحاجاتِ الحسّيّةِ أو المعنويّةِ المجرَّدةِ ، وجديرٌ ذكرُه في هذا المقامِ أنّ أبًا هلالٍ العسكريّ قد تطرّقَ في كتابِه معجمِ الفروق اللّغويّةِ إلى جميعِ درجاتِ الحبّ مبيّناً الفروقاتِ بينها؛ ففي التّفريقِ بينَ العشقِ والمحبّةِ يقول: "العشقُ شدّة الشّهوةِ لنيلِ المرادِ من المعشوقِ إذا كان إنساناً والعزم على مواقعتِه عند التّمكّنِ منه" . [٥]

ولا شكَّ في أنّ ابنَ حزمٍ لم يكنْ أوّلَ من وقفَ على موضوعِ الحبّ؛ فقد سبقه إلى ذلك جمعٌ غفيرٌ من مفكّري العرب وفلاسفتِهم فضلاً عن الفلاسفةِ من غيرِ العربِ من مثلِ إخوانِ الصّفا الذين ألّفوا رسالةً تحت عنوان ((في ماهيّة العشق))، وتعدُّ هذه الرّسالةَ السّادسةَ من النّفسانيّاتِ والعقليّات، وهي أيضاً الرّسالةُ السّابعة والثّلاثين من رسائل إخوان الصّفا التي تتحدّث عن ماهيّةِ العشقِ ومحبّة النّفوس، ويظهر تأثّرهم بآراءِ أفلاطونَ واضحاً جليّاً ولا سيّما في محاورةِ المأدبة التي حَوتْ أعظمَ مجموعةٍ من الأفكارِ الفلسفيّةِ حولَ الحبّ؛ فتكلّمت على ماهيّتِه وطبيعتِه ومنشئه وملامحه وعلاماتِه؛ ولذلك نراهم قد تطرّقوا إلى أقوال حكماءِ اليونانِ فيما يتعلّق بمسائلِ الحبّ . [٦]

أمّا ابنُ حزمٍ فقد قدّم في كتابِه (الأخلاقِ والسّيرِ) تعريفاً للحبّ بقولِه: "المحبّة هي الرّغبةُ في المحبوبِ، وكراهةُ منافرتِه، والرّغبةُ في المقارضةِ منه بالمحبّةِ" ، وفي كتابِه طوقِ الحمامةِ يمكنُ[٧] استشفافُ مواضعَ كثيرةٍ حاولَ فيها أن يجسّدَ رؤيتَه لماهيّةِ الحبّ لا سيّما في البابِ الأوّلِ من الكتابِ؛ بابِ ((الكلام في ماهيّة الحبّ))، وهو عندَه "أوّله هزلٌ وآخرهُ جِدٌّ، دقّتْ معانيه لجلالتِها عن أن توصَفَ، فلا تُدرَكُ حقيقتُها إلّا بالمعاناة" . [٨]

فالحبُّ عندَ ابنَ حزمٍ أمرٌ معنويٌّ مجرَّدٌ يستعصي على الحواسّ إدراكه والإحاطةُ به لسموّهِ ورفعتِه عن المادّيّاتِ، وهو مشروطٌ بالمعاناة فلا يمكنُ للحبّ أن يتخلّقَ في فؤادِ المرءِ ما لم يبذلْ لأجلِه الغثَّ والسّمينَ وما لم يتكبّدِ الصّعابَ في سبيلِه.

---

[١] – لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت– لبنان، مادّة (حبب).

[٢] – مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، اتّحاد الكتاب العرب، القاهرة– مصر، ٢٠٠٢م، مادة (حبب).

[٣] – مفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت– لبنان، ص ١٠٥.

[٤] – يُنظر: الموسوعة العربية الميسرة والموسعة: ياسين صلاواتي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٧٠/٤.

[٥] – معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري ونور الدين الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم– إيران، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

[٦] – يُنظر :رسائل إخوان الصّفاء وخلان الوفاء، إعداد وتحقيق: د. عارف تامر، بيروت– لبنان، ١٩٥٧م، ص ٢٦٩ وما يليها.

[٧] – الأخلاق والسير ومداواة النفوس: ابن حزم الأندلسي، تح: إيفا رياض، مر: عبد الحي التركماني، دار ابن حزم– جو طنبورج، ١٤٢٠هـ، ص ١٢٩.

[٨] – طوق الحمامة في الألفة والألّاف: ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ص ٥.

درجات الحبّ في طوقِ الحمامةِ:

على الرّغمِ من اختلافِ آراء الحكماء والمفكّرين في مسألةِ درجاتِ الحبّ وأنواعِه إلّا أنّ النّاظر في تلك الآراءِ سرعان ما يقفُ على اتّفاقِهم في درجتين رئيستين:

الدّرجة الأولى: العشق الغريزيّ أو الجذب الطّبيعيّ المحرّك لجميع الموجودات؛ فإنّ لكلّ واحدٍ منها عشقاً فطريّاً لكمالِه؛ كعشقِ الأجسامِ الكيماويّةِ بعضِها لبعضٍ، أو عشقِ الحيوانِ للغذاءِ، أو عشقِ الفتيان للوجوهِ الحسانِ.

الدّرجة الثّانية: العشق الإلهيّ أو المحبّة الخالصة التي تدعو إليها الصّوفيّةُ وتؤمن بأنّ الجوهرَ الإلهيَّ في الإنسانِ إذا صفا من المادّةِ اشتاقَ إلى شبيهه، ورأى بعينِ عقلِه الخيرَ الأوّلَ المحضَ فأسرعَ إليه؛ وحينئذٍ يفيضُ عليه نور ذلك الخيرِ فيتّحد به، ويشعر بلَذّةٍ لا تضارعها لذّةٌ.[١]

ولا شكَّ أنّ الدّرجةَ الثّانيةَ تعدّ أعلى مراتبِ الوصول وأعظمَ درجات الحبّ لتجرّدها من العِلل النّفعيّةِ أو الكسبيّةِ التي هي في الدّرجةِ الأولى؛ فحبُّ الفتى للأنثى، وحبُّ الحيوان للطّعامِ والشّرابِ، وحبُّ الإنسانِ للظّهورِ والتّفوّقِ هي جميعها محبّةٌ ذاتُ طابعٍ نفعيٍّ أو كسبيٍّ بخلافِ محبّة الخالقِ التي هي محبّةٌ روحيّةٌ محضةٌ مجرّدةٌ من الغاياتِ الكسبيّةِ والنّفعيّةِ كافّةً، وفي هذه الدّرجةِ يتجرّدُ المرءُ من كلّ شيءٍ؛ فلا يكون ثمّة عاشقٌ ومعشوقٌ وعارفٌ ومعروفٌ بل عشقٌ واحدٌ مطلَقٌ هو الذّاتُ الحقّ الذي لا يدخلُ تحتَ اسمٍ ولا نعتٍ ولا وصفٍ.

والحقُّ أنّ مسألةَ درجاتِ الحبّ لَتعدُّ من أهمّ المسائلِ التي تطرّق إليها ابن حزمٍ في مؤلّفِه، وهذا ما يميزه عن كثيرٍ من المؤلّفين الذين عرضوا للحبّ غير أنّهم أغفلوا هذا الجانبَ؛ فبعض تلك المؤلّفاتِ قد أغفل هذا الجانبَ وبعضها الآخر ذكره بشيءٍ من الإيجازِ، ولا يكاد ابن حزم يبتعد عمّا ذكره الأقدمون في شيءٍ إلّا في التّفصيلِ في تلك الدّرجاتِ؛ وعلى الرّغمِ من أنّه لم يُخصّصْ لها باباً منفرداً إلّا أنّ النّاظرَ في طوقِ الحمامةِ سرعانَ ما يلمحُ تفصيلاً لدرجاتِ الحبّ، غيرَ أنّ ابن حزمٍ قد ذكرها على التّلميحِ لا التّصريحِ.

الدّرجة الأولى: الرّؤيا في المنام:

ألمحَ ابنُ حزمٍ إلى أنّ الرّؤيا في المنامِ تعدّ أدنى درجاتِ الحبِّ وأشدّها هشاشةً ورقّةً بقولِه: "ولا بدّ لكلّ حبٍّ من سببٍ يكون له أصلاً، وأنا مبتدِئٌ بأبعدَ ما يمكن أن يكونَ من أسبابِه ليجريَ الكلامُ على نسقٍ، أو أن يبتدأَ بالسّهلِ والأهونِ"[٢]؛ فالحبُّ عندَ ابنِ حزمٍ استجابةٌ لدافعٍ معيَّنٍ، ولا يمكن أن تتأتّى الاستجابةُ ما لم يكنِ الدّافعُ حاصلاً موجوداً، وهذا ثابتٌ وفق المنطقِ الفلسفيّ والعلميّ على حدٍّ سواءٍ، وتلك الاستجابةُ تتناسبُ طرداً معَ شدّةِ الدّافعِ؛ فلمّا كان الحبّ في النّومِ دافعاً هشّاً ضعيفاً ناسبَ ذلك أن يكونَ الحبُّ المتأتّي عن هذا الدّافعِ هشّاً رقيقاً أيضاً؛ ذلك أنّ الحادثَ في المنامِ منفصلٌ عن الواقعِ الذي يعيش فيه المرء، ولذا أنكرَ ابنُ حزمٍ على

[١] – يُنظر:المعجم الفلسفي: جميل صليبا، منشورات ذوي القربى، ٣٥١/٢، ٣٥٢.

[٢] -طوق الحمامة:ابن حزم،ص١٩.

الإنسانِ أن يحبّ شخصاً لمجرَّدِ رؤيا في المنامِ وعدّ هذا الأمرَ ضرباً من الخيالِ، غير أنّه اضطرَّ إلى ذكرِهِ لما سمعَه من أحدِ الثّقاتِ من حبّه لجاريةٍ لمجرّدِ أن رآها في منامِه؛ يقول "لولا أنّي شاهدتُه لم أذكرْه أبداً" [١] .

ثمّ يستشهدُ على مسألةِ الحبّ في المنامِ بخبرٍ ساقه له صديقُه أبو السري عمّار بن زياد مفاده أنّه وقع في عشقِ جاريةٍ رآها في منامِه ولم يدركْها في واقعِه قَطُّ، وقد شغفه حبُّها وهام بها عشقاً وظلَّ على حالِه هذه ما يقاربُ شهراً أو يزيد مهموماً مغموماً لا يرتاح له بالٌ ولا يهنأ له عيشٌ، فنهرَه ابن حزمٍ عن فعلِه قائلاً له: "من الخطأ العظيمِ أن تشغلَ نفسكَ بغيرِ حقيقةٍ، وتعلّقَ وهمَكَ بمعدومٍ لا يوجد" [٢] .

ثمّ سأله إن كان على معرفةٍ بها أو صادفَها في الطّريقِ، فلمّا أجابه بالنّفي ردّ عليه ابن حزمٍ بقولِه: "إنّك لقيْلُ الرّأيِ مُصابُ البصيرةِ إذ تحبُّ من لم ترَه قطُّ ولا خُلقَ ولا هو في الدّنيا، ولو عشقْتَ صورةً من صورِ الحمامِ لكنْتَ عندي أعذرَ" [٣] .

فعلى الرّغمِ من أنّ ابنَ حزمٍ قد ذكرَ قصّةَ هذا الرّجلِ الذي أحبّ امرأةً في المنامِ إلّا أنّه ذكرها على سبيلِ الإنكارِ والتّعجّب لا على سبيلِ الحضّ؛ فقد أنكر على صديقِه أن يقعَ في حبّ جاريةٍ لم يرَها ولا مكانَ لها في العالمِ الواقعيّ؛ ذلك أنَّ العين هي مرآةُ القلبِ، ولا ينبغي للمحبِّ أن يقعَ في ميلٍ أو هوى ما لم يرَ محبوبَه رؤي العين؛ فكيفَ بحالٍ من أضحى مهموماً مغموماً بسببِ رؤيا في المنامِ لا صلةَ لها بالواقعَ! إنّ هذا لمِن حديثِ النّفسِ وأضغاثِ الأحلامِ على نحوِ ما أوضحَ [٤] .

الدّرجة الثّانية: الحبّ بالوصفِ:

يعدُّ الحبُّ بالوصفِ أحدَ وجوه الحبِّ التي تطرّقَ إليها ابنُ حزمٍ في كتابِ طوقِ الحمامةِ، ويكون بأن يعشقُ المرءُ أوصافاً قد سمعها غير أنّه لم يعاينْها، ويتغذّى هذا النّوعُ من الحبّ على وسائلَ غيرِ بصريّةٍ كالمراسلةِ والكتابةِ ؛ فيظلّ الحبيبانِ يبثّان أشواقهما مْن خلالِ رسائلَ أو وسطاءَ يعيناهما على إيصالِ رسائلهما العاطفيّةِ، ويظلّ المحبّ ساهراً ليلَه متطلّعاً شوقاً إلى رسالةٍ من المحبوبِ أو إشارةٍ منه.

ومن مظاهرِه أيضاً أن يسمعَ المحبُّ صوتَ حبيبِه دونَ أن يراه بعينِه؛ فيظلّ هائماً بنغماتِ صوتِه محاولاً أن ينسجَ صورةً لمحبوبِه في خيالِه وفكرِه، وأكثر ما يعرضُ هذا النّوع من الحبّ لربّاتِ البيوت أو المحجوبات في القصورِ اللّاتي لا يخالطْن الرّجالَ في الطّريقِ عامّةً، فيكونُ حبُّهُنَّ لأقاربهنّ من الرّجال أوقعَ وأشدَّ احتمالاً، والنّساءُ في مثلِ هذا النّوع من الحبّ أثبت من الرّجالِ لضعفهنّ وسرعة إجابةِ طباعهنَ بحسبِ ما بيّن ابن حزمٍ [٦] .

والحقّ أنّ ابنَ حزمٍ قد أنكرَ هذين النّوعين من الحبّ لاقتصارهما على حاسّةِ السّمعِ وعدمِ إشراكِ حاسّةِ البصرِ، وهما عندَه "بنيانٌ هار على غيرِ أسّ" ؛ أي لا قاعدةَ ثابتةً لهما، وفي تعْليلِ ذلك يقول: "وذلك أنّ الذي أفرغَ ذهنَه في هوى من لم يُرَ لا بدّ له إذ يخلو بفكرِه أن يمثّلَ لنفسِه صورةً يتوهّمها وعيناً يقيمها نُصبَ ضميرِه،

---

[١] – المصدر السابق، ص ١٩.

[٢] – المصدر نفسه، ص ٢٠.

[٣] – المصدر نفسه:ص٢٠

[٤] – يُنظر:طوق الحمامة: ابن حزم ص٢٠

[٥] – يُنظر: المصدر السابق:ص٢٠ .

[٦] – يُنظر: المصدر نفسه، ص ٢١.

[٧] – المصدر نفسه، ص ٢٠.

ولا يتمثّل في هاجسِه غيرها قد مال بوهمِه نحوَها" ، وهذا صحيحٌ لأنّ المرءَ لا يمكن أن يعشقَ بالوصفِ لأنّ الأوصافَ تتباين تبعاً للرّائيّ نفسِه، فقد يرى أحدٌ صفةَ الحسنِ أو جمالِ العيون أو رقّةِ الشّمائل في امرأةٍ ولا يرى ذلك غيره، وقد يحبُّ شخصٌ إنساناً بالوصفِ فإذا رآه بعينِه ألفاه على غيرِ حقيقةِ ما وُصفَ به.

وعلى الرّغمِ من أنّ ابنَ حزمٍ قد وُفّق في الإشارةِ إلى أنّ تعرّضَ النّساءِ لمثلِ هذا النّوعِ من الحبّ أشدّ شيوعاً مقارنةً بالرّجلِ فإنّه لم يُوفّق في إقامةِ الحُجّةِ لرأيِه؛ فليس سببُ هذا ضعف المرأةِ وسرعتها في إجابةِ عواطفِها وجنوحِها إليها؛ بل لأنّ النّساءَ كُنَّ في ذلك الزّمنِ مقصوراتٍ في الخدورِ محجوباتٍ في البيوتِ؛ فكنَّ يلبين غريزتهنّ التي جُبلْنَ عليها مع أيّ رجلٍ يصادِفنَه أو يسمعْنَ به، وليسَ هذا شأنُ الرّجالِ العاكفين في الطّرقات السّاعين في طلبِ الأرزاق؛ إذ هم أكثرُ تعرّضاً للنّساءِ واعتياداً عليهنّ فَقلَّ أن يقعوا في الحبّ لمجرَّدِ الوصفِ، يُضافُ إلى هذا ما هو معلومٌ من الاختلافِ البيولوجيّ بين المرأةِ والرّجلِ؛ فالرّجل يعشقُ بالعين والمرأة تعشقُ بالسّمع؛ فقوّى ذلك أن يتمكّن حبّ المرأةِ للرّجلِ لمجرّدِ الوصفِ، ولا يتمكّن عند الرّجلِ إلّا بالمعاينةِ والبصرِ.

الدّرجة الثّالثة: الحبّ البصريّ:

أيقنَ ابن حزمٍ أنّ العينَ هي مرآة القلبِ، ولا يمكنُ للمرْءِ أن يقعَ على شبيهِه إلّا بالنّظرِ إليه؛ فهو الخطوةُ الأولى والرّئيسةُ التي تمهّد لالتقاءِ الأرواحِ بعد ذلك؛ من ثَمَّ فإنَّ العينَ فضلُها ظاهرٌ على الحواسِ؛ فإذا كان الذّوقُ واللّمسُ يدرَكان بالمجاورةِ، والسّمعُ والشّمُّ يدرَكان بالمقاربةِ، فإنَّ البصرَ يُدرَكُ عن بعدٍ، والعينُ منفَذٌ إلى القلبِ، والحقُّ أنّ العينَ تهدي كما يهدي اللّسانُ، وتملك ضوابطَ وأحكاماً، وتسيرُ وفقَ ضوابطَ وقواعدَ وأنظمةٍ، ويُعرَفُ لها مقاماتٌ في التّعبيرِ لا يضارعُها فيها اللّسانُ؛ ففي مقامِ الحبّ تكشفُ العينُ عن إيقاعِ القلبِ وتعبّرُ تماماً كما يُفصِحُ اللّسانُ عمّا هو مضمَرٌ في الجنانِ، وفي سياقِ الحديثِ عن حاسّةِ البصرِ وقدرةِ العين نجد ابنَ حزمٍ لا يتكلّمُ على العينِ بوصفِها حاسّةً مركزيّةً، إنّما يرى في الفعلِ البصريّ لغةً متعدّدةَ المعاني تكشفُ عن عمقِ المشاعرِ ويتمخّضُ عنها كثيرٌ من الأوامرِ والنّواهي؛ "فالإشارةُ بمؤخّرِ العينِ الواحدةِ نهيٌ عن الأمرِ، وتفتيرُها إعلامٌ بالقبولِ، وإدامةُ النّظرِ دليلٌ على التّوجّعِ والأسفِ، وكسرُ نظرها آيةُ الفرحِ، والإشارةُ إلى إطباقِها دليلٌ على التّهديدِ، وقلبُ الحدقةِ إلى جهةٍ ثمّ صرفها بسرعةٍ تنبيهٌ على مُشارٍ إليه، والإشارةُ الخفيّةُ بمؤخّرِ العينين كلتاهما سؤالٌ، وقلبُ الحدقةِ من وسطِ العينِ إلى الموقِ بسرعةٍ شاهد المنعِ، وترعيدُ الحدقتيْنِ من وسطِ العينين نهيٌ عامٌّ" ، وهذا يدلّ على أنّ الميلَ يبدأ[٢]من العينِ؛ فهي فاتحتُه والسّبيلُ إلى استحالتِه حبّاً حقيقيّاً وتثبّته في نفسِ صاحبِها؛ وعليه تكونُ العينُ عندَ ابنَ حزمٍ أداةً لتفعيلِ تجربةِ الحبّ لا يمكنُ مجاوزتُها؛ إذ هي مهمّةٌ لإدراكِ المحبّ لمحبوبِه، وإن كان في الحقيقةِ الجانبُ النّفسيُّ هو المسؤولُ عن إدراكِ ماهيّةِ الصّورةِ المرئيّةِ.

والحالُ أنّ العينَ عندَ ابن حزمٍ تضطلع بوظائفَ أخرى ولكنّها مرتبطةٌ بفعلِ الحبّ؛ من أجلِ هذا نلفيها وسيلةً لتتبّعِ حركاتِ المحبوبِ والالتذاذِ بصورتِه، وقد يكونُ لها أثرٌ عظيمٌ في تغيّرِ المحبّ نفسيّاً وجسديّاً، والعينُ عند ابن حزمٍ تفوق سائرَ الحواسّ قوّةً في تجربةِ الحبّ والعشقِ، كما يمكن لها أن تقومَ مقامَ رسلِ الحبّ وتنوبَ عنهم، فتوصل المرادَ إلى المحبوب وتبلغه رسالةَ المحِبّ بكلّ فصاحةٍ وبلاغةٍ، ويمكنُ الاستدلالُ على هذا وفق قولِ ابن حزمٍ: "واعلم أنّ العينَ تنوبُ عن الرّسل، ويُدرَكَ بها المرادُ، والحواسُّ الأربعُ أبوابٌ إلى القلبِ ومنافذُ

[١] – المصدر نفسه ص ٢٠، ٢١.

[٢] – طوق الحمامة: ابن حزم، ص ٣٢.

نحو النّفسِ، والعينُ أبلغُها وأصحُّها دِلالةً وأوعاها عملاً، وهي رائدةُ النّفسِ الصّادقةِ ودليلُها الهادي ومرآتُها المجلوّةُ" .[1]

وإذا ما عدنا إلى طوقِ الحمامةِ نجد أنّ مؤلِّفَه قد قسمَ الحبّ البصريَّ قسمين هما: حبٌّ ناتجٌ عن نظرةٍ واحدةٍ، وحبٌّ ناتجٌ عن غيرِ نظرةٍ واحدةٍ.

أوّلاً: الحبّ النّاتجُ عن نظرةٍ واحدةٍ (أو الحبّ من نظرةٍ واحدةٍ):

ويكونُ بأنْ يرى المرءُ جاريةً أو فتاةً فيلصقُ حبُّها بقلبِه حالما يلمحها؛ فلا يحتاج إلى نظرةٍ ثانيةٍ ليتوثّقَ الحبّ ويتثبّتَ في قلبِه، والحالُ أنّ هذا النّوع من الحبّ ينقسم بدورِهِ قسمين؛ فإمّا أن يقعَ الرّجلُ بحبِّ جاريةٍ لا يعلم منشأها ولا أصلها ولا فصلها ولا يقع على اسمها أو مستقرّها، وهو على الرّغمِ من ذلك يبقى متشوّقاً إلى لقائها متطلّعاً إلى تتبّع أثرٍ لها أو علامةٍ دالّةٍ عليها، ومثل هذا ما ذكره من قصّةِ رجلٍ كان مجتازاً عند باب العطّارين بقرطبة، فوقعت عينُه على جاريةٍ أخذت بمجامعِ قلبِه وتسلّل حبُّها إليه حتّى بلغَ شغافَ قلبِه وهو لا يعلم لها اسماً أو منشأً، وقد حاول أن يقفوَ أثرَها، فلمّا لم يستطعْ ظلَّ ماكثاً ملازماً لبابِ العطّارين علّها ترجع أو تبعث إليه بخبرٍ، غيرَ أنّ ظنّه خابَ، وظلّ حبُّها عالقاً في قلبِه، يقول ابن حزمٍ على لسانِه: "فو الله قد لازمْتُ بابَ العطّارين من ذلك الوقتِ إلى الآن فما وقعْتُ لها على خبرٍ، ولا أدري أَسَماءٌ لحسَتْها أم أرضٌ بلعتْها، وإنّ في قلبي منها لأحرّ من الجمرِ" .[3]

أمّا النّوع الثّاني الذي يندرج تحت عنوان الحبّ من النّظرةِ الأولى فيكون بأن يقعَ الرّجلُ في حبِّ جاريةٍ معروفةِ الاسمِ والمكانِ والمنشأ، ويكون ذلك أيضاً من نظرةٍ واحدةٍ، وممّا يمكن الاستشهاد به على مثلِ هذا النّوعِ من الحبّ ما ذكره ابن حزمٍ من خبرِ جاريةٍ عظيمةِ المكانةِ عاليةِ المنصب، وكان أنِ التقت بأحدِ أبناءِ الكتّاب فتعلّقتْ به من النّظرةِ الأولى وعلّقتْه بها، وظلّا يتراسلان فترةً من الزّمن، وهذا كلّه بفعلِ نظرةٍ واحدةٍ .[4]

أمّا عن رأي ابن حزمٍ بمثلِ هذا النّوعِ من الحبِّ فهو لا ينكرُه كما هي الحال في الحبّ بالمنامِ والحبّ بالوصفِ؛ إلّا أنّه يضعّفه ولا يؤيّد من يقعُ فيه، وقد تعجّب ابن حزمٍ ممّن يتمكّن الحبّ منه من نظرةٍ واحدةٍ حتّى إنّه نفى عنه صفةَ الحبّ وجعله ضرباً من الشّهوةِ مجرَّداً من العواطفِ النّبيلةِ التي ينبغي أن تصحبَ الحبَّ وتعدَّ من متمّماتِه؛ فلا يكونُ الحبُّ قائماً إلّا بها؛ وفي مثلِ هذا يقول: "وإنّي لأطيلُ العجبَ من كلِّ من يدّعي أنّه يحبُّ من نظرةٍ واحدةٍ ولا أكادُ أصدّقهُ ولا أجعلُ حبَّه إلّا ضرباً من الشّهوةِ" .[5]

والحُجّةُ لذلك أنّ الحبّ ينبغي أن يقترنَ بالمعاناة على نحوِ ما تقدّمَ، وأن يبذلَ المحبّ في سبيلِه ما أمكنه ذلك، وأن يتحلّى بالصّبرِ ولا يتركَ نفسه فريسةً لليأسِ والاستسلامِ، ولمّا كان الحبّ من نظرةٍ واحدةٍ خالياً من مثلِ هذه الشّروطِ فإنّه ضعيفٌ واهٍ؛ لأنّ ما تحقّق سريعاً يذهب سريعاً، ويؤيّدُ ذلك قولُ ابنُ حزمٍ: "فمن أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ وأسرعَ العلاقةَ من لمحةٍ خاطرةٍ فهو دليلٌ على قِلّةِ الصّبرِ، ومُخبرٌ بسرعةِ السّلوِ وشاهد الظّرافةِ والملل، وهكذا في جميع الأشياءِ أسرعُها نموّاً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً" .[6]

---

[1] – المصدر السّابق، ص ٣٢.

[2] – يُنظر: طوق الحمامة: ابن حزم ، ص ٢٢، ٢٣.

[3] – المصدر السّابق، ص ٢٣.

[4] – يُنظر: المصدر نفسه، ص ٢٤.

[5] – المصدر نفسه، ص ٢٥.

[6] – المصدر نفسه، ص ٢٣، ٢٤.

ثانياً: باب الحبّ من غيرِ نظرةٍ واحدةٍ:

وهو ما أطلق عليه ابن حزمٍ اسمَ (باب ما لا يحبّ إلّا مع المطاولة)، ويكون بأنْ يرى المحبّ المحبوبَ ويصبح له مؤنِساً وبه مؤتنساً، وهو لا يحدث إلّا بطولِ المدّة وكثرةِ التّلاقي وطول المخافتة، وهو عند ابن حزمٍ حبٌّ ثابتٌ إذا توافرت فيه الشّروطُ الصّحيحةُ لأنّه مبنيٌّ على قاعدةٍ ثابتةٍ متينةٍ بخلافِ الحبّ الذي يتأتّى عن نظرةٍ واحدةٍ، والحُجّة لذلك أنّ "ما دخل عسيراً لم يخرجْ يسيراً" [١].

والحقّ أنّ ابنَ حزمٍ قد أيّد هذا النّوعَ من الحبّ، وذكر أنّه هو نفسه لا يمكن أن يقعَ في شراك الحبّ إلّا بعد طول معاشرةٍ ومعرفةٍ، ويستوي هذا في كونِ المعاشَرِ امرأةً أو صديقاً أو حتّى بهيمةً، كما ينطبقُ الأمرُ كذلك على سائرِ الجماداتِ كالملبوسات والطّعام وما شاكل ذلك؛ يقول: "وما لصقَ بأحشائي حبٌّ قَطُّ إلّا مع الزّمنِ الطّويلِ وبعدَ ملازمةِ الشّخصِ لي دهراً وأخذي معه في كلِّ جِدٍّ وهزلٍ... وما مللتُ شيئاً قطُّ بعدَ معرفتي به، ولا أسرعْتُ إلى الأنسِ بشيءٍ قطُّ أوّلَ لقائي له، ولا رغبْتُ في الاستبدالِ إلى سببٍ من أسباب منذ كنت، لا أقولُ في الألّافِ والإخوانِ وحدَهم، لكن في كلِّ ما يستعملُ الإنسانُ من ملبوسٍ ومركوبٍ ومطعومٍ وغير ذلك، وما انتفعْتُ بعيشٍ ولا فارقني الإطراقُ والانفلاقُ مذ ذقْتُ طعمَ فراقِ الأحبّةِ" [٢].

وعليه فإنّ الحبّ الذي يقوم على حاسّةِ البصرِ متجرّداً من كلّ ما سواها لا يكون حبّاً قويّاً بل حبّاً شهوانيّاً بالدّرجةِ الأولى؛ ذلك أنّ النّظرةَ الواقعةَ على استحسانٍ جسديٍّ تكونُ مدفوعةً من النّفسِ بتأثيرِ الغريزةِ المسيطرةِ التي تسوّغ لطلبها ذلك الجسم فكأنّها تجعل من الحبّ شمّاعةً لبلوغِ هدفِها، ويستشهد ابن حزمٍ على أهمّيّة المعاشرةِ بقولِه:

محبّةُ صدقٍ لم تكنْ بنتُ ساعةٍ ... ولا وَرِيَتْ حينَ ارتياد زنادها
ولكنْ على مَهَلٍ سَرَتْ وتولّدَتْ ... بطولِ امتزاجٍ فاستقرَّ عمادُها
يؤكّدُ ذا أنّا نرى كلَّ نشأةٍ ... تتِمُّ سريعاً عن قريبٍ معادها

الدّرجة الرّابعة: الحبّ الرّوحانيّ:

يعدُّ الحبّ الرّوحانيّ أعلى درجات الحبّ الأنسيّ التي ذكرها ابن حزمٍ، وهو مرتبطٌ بصورةٍ مباشرةٍ بمبدأ المشاكلةِ والمجانسةِ؛ فهو يتجاوزُ الحواسَّ وينفذُ منها إلى كلِّ ما هو معنويّ أو مجرّدٌ فيكونُ المحبُّ مراعياً لمحبوبِه، حافظاً لكلِّ ما يقعُ منه، باحثاً عن أخبارِه متتبّعاً لحركاتِه، وهو لا يقف عند الخيالِ كما هي الحالُ في

[١] _طوق الحمامة: ابن حزم الأندلسي؛ص٢٤.
[٢] _المصدر السابق:ص٢٥
[٣] –المصدر نفسه:ص٢٥.

الحبّ في المنام، كما لا يقفُ على السّمعِ كما هي الحالُ في الحبّ بالوصفِ، وهو كذلك يتجاوز حاسّةَ البصرِ التي تعدُّ العتبةَ الأولى لتسلّل الحبّ إلى نفسِ المحبّ؛ فيضحي العشقُ متفوّقاً على جميعِ الصّورِ والتّشكّلاتِ والهيئات، ويصبحُ المحبوبُ المدرَكُ أسمى من الصّورةِ الجسديّةِ المرئيّةِ وأرفعَ من أن يُدرَكَ بالبصرِ؛ فلا بدّ حينئذٍ من إشراكِ البصيرةِ لتكتملَ تجربة الحبِّ وتسموَ إلى مرتبةِ العشقِ والهيامِ.

أمّا عن اختيارِ محبوبٍ بعينِه دونَ آخرَ فذلك معلَّلٌ عندَ ابن حزمٍ بتآلفِ الأرواحِ وتشابهها؛ ذلك بأنّ العين عندما تبصرُ شيئاً أو شخصاً فإنّها تفسّرُ ما تراه تبعاً للرّائيّ نفسِه لا المرئيّ؛ من أجلِ ذلك يتفاوتُ النّاسُ في إدراكِ الجمالِ، ونسبيّةُ الجمالِ تلك مردُّها إلى تفاوت نقاطِ التّشابه بين الرّائيّ والمرئيّ؛ فمثلاً قد يرى فلانٌ شخصاً بارعَ الجمالِ كاملَ الصّورةِ ويراه آخرُ غير ذلك لعدمِ اتّفاقٍ أو مشاكلةٍ بين النّاظرِ والمنظورِ، ولو أنّ العينَ لا تبصرُ سوى الصّفاتِ الجسديّةِ دون الرّوحيّةِ لما أحبّ المرءُ شخصاً أدنى منه جمالاً وحسناً؛ إذ ليست "علّة الحبّ حسنُ الصّورةِ الجسديّةِ وإلّا لوجبَ ألّا يستحسنَ الأنقصُ من الصّورةِ، ونحنُ نجد كثيراً ممّن يؤثرُ الأدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه" [١].

والحقّ أنّ الجاحظَ قد سبقَ ابن حزمٍ إلى ما أدلى به؛ إذ أقرَّ بأنَّ "العاشقَ كثيراً ما يعشقُ غيرَ النّهاية في الجمالِ، ولا الغاية في الكمالِ، ولا الموصوف بالبراعةِ والرّشقةِ، ثمَّ إنْ سُئلَ عن حُجّتِه في ذلك لم تُقَمْ له حُجّةٌ" [٢].

وقد تأثّر ابنُ القيّمِ فيما رواهُ كلٌّ من الجاحظِ وابن حزمٍ؛ إذ رأى أنّ الحبَّ هو "تشاكلُ النّفوسِ وتمازجها في الطّبائعِ المخلوقةِ" [٣]؛ وعليه لا يكونُ وقفاً على الحسنِ الخارجيّ أو الصّفاتِ الجسديّةِ فحسب، إنّما ينبغي أن يصحبَ ذلك اتّفاقٌ بين النّفسَيْن العاشقةِ والمعشوقةِ.

وأيّده في ذلك الغزاليّ الذي عدّ المناسبةَ والمشاكلةَ من أهمَ أسبابِ الحبّ بين الحبيبِ والمحبوبِ، لأنّ شبيهَ الشّيءَ منجذبٌ إليه، كما أيّد قولِه ذلك بمثلِ ما استشهد بهِ ابن حزمٍ [٤]؛ وهو قوله (ص): "الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ، فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكرَ منها اختلفَ" [٥].

ولا شكَّ أنّ المشاكلةَ عند ابن حزمٍ تفوقُ الحبَّ البصريَّ الذي لا يجاوزُ التّصاويرَ الحسنةَ والأشكال الجميلةَ لأنّه قائمٌ على تآلفِ الأرواحِ ومجاوزة الحسّيّ إلى المعنويّ المجرَّدِ، ومعلومٌ أنّ الشّكلَ يكون عرضةً للتبدّلِ والتّغيّرِ بخلافِ الرّوحِ التي لا تصدأ بل تسمو بسموّ روحِ المحبوبِ وتآلفِهما؛ من أجلِ ذلك اهتمّ ابن حزمٍ بالحبِّ العلويّ الذي ينشأ بين النّفوسِ مجرّداً من الاستحسانِ الجسديّ؛ وحينئذٍ "لا يُرجى الاتّصال على الحقيقةِ إلّا بعدَ التّهيُّؤ من النّفسِ والاستعدادِ له، ويعد إيصالِ المعرفةِ إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطّبائعِ التي خفيت بما يشابهها من طبائعِ المحبوبِ، فحينئذٍ يتّصل اتّصالاً صحيحاً بلا مانعٍ" [٦]؛ وفق هذا فإنّ الحبَّ الذي لا يتجاوزُ الصّورةَ أو الشّكلَ يبقى محضَ ميلٍ غريزيّ شهوانيٍّ إلى الجسدِ، وهو يظلُّ على هذه الهيئةِ لحينِ العثورِ

---

[١] – طوق الحمامة: ابن حزم، ص ٦.

[٢] – رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة– مصر، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ١٦٧/٢.

[٣] – روضة المحبّين ونزهة المشتاقين: ابن قيّم الجوزيّة الإمام شمس الدّين محمّد بن أبي بكر الحنبلي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ص ٦٨.

[٤] – إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي، دار السلام، القاهرة– مصر، ط٢، ٦٠٣/٤.

[٥] - أخرجه مسلم في صحيحه حديث صحيح، رقم (٢٦٣٨)،طوق الحمامة:ابن حزم الأندلسي ص٨.

[٦] – طوق الحمامة: ابن حزم، ص ٢٦.

على نقاطِ التقاءٍ أو تشابهٍ مع المحبوب ليسموَ من المادّةِ إلى التّجرّدِ، ومن العرضِ إلى الجوهرِ؛ فكأنَّ الأمرَ أشبهُ بحنينٍ إلى عالمٍ غيرِ هذا العالم، وبموجبِ هذا يتنصّلُ المرءُ عن كلّ ما اعتاده في عالمِ الحسّ ليبلغَ ذلك المقامَ؛ فالمحبوب لديه أغلى ما يوجَد، بل يرتبطُ مصيرُه بمصيرِه، ووصالُه ذروة السّعادةِ، وإذا فقده فكأنّما فقد كلَّ شيءٍ، حتّى نفسه لا تعود تعادلُ قيمةَ ذلك المحبوبِ.

وإذا ما بلغَ المحبّان هذا المقامَ العشقيَّ خرّتْ أمام وجهيهما جميعُ أسبابِ الانفصالِ، وأضحى الاتّصالُ حاملاً صفات الدّيمومةِ والاستمراريّةِ؛ فلا انفصالَ بينهما إلّا بانفصالِ أحدِ هذين الطّرفين أو كليهما عن العالم الدّنيويّ والانتقال إلى العالمِ الأخرويّ العلويّ الدّيموميّ، وفي مثلِ هذا يقول ابن حزمٍ: "حاشى محبّة العشقِ الصّحيحِ الممكّنِ من النّفسِ؛ فهي التي لا فناءَ لها إلّا بالموتِ" ، وعندَها فقط يضحي الموتُ [1]دافعاً لالتقاءِ الرّوحين في العالم الأخرويّ المنفلت من الحدود الزّمكانيّة النّسبيّةِ التي تحدّ العالمَ الدّنيويّ.

الدّرجة الخامسة: حبّ الذّات الإلهيّة:

على الرّغمِ من أنّ كتابَ طوقِ الحمامةِ يعدّ رسالةً في العشقِ خصّها مؤلّفها ببيانِ أشكالِ الحبّ بين الرّجلِ والمرأةِ؛ غير أنّه قد تطرّق إلى جانبِ ذلك إلى مسألةِ العشقِ الإلهيّ جاعلاً إيّاه أعلى درجاتِ الحبّ وأسماها منزلةً؛ ففضلُ الله عظيمٌ لأنّه امتنّ على عبده بأن جعلَ له عقلاً يعرفه من خلاله، وحواسَّ يدركُ من خلالها ظواهر الأشياء وبواطنها ، وهي منافذُ للحبّ يتسلّل من [2]خلالها إلى شغاف القلب، من أجلِ ذلك كلِّه كان حريّاً بابن حزمٍ أن يفردَ جزءاً من كتابِه لوصفِ العشقِ الإلهيّ، وأن يجعلَه في مقدّمةِ كتابِه مصرّحاً بأنّه أعلى درجاتِ الحبّ وأكثرها سموّاً وشرفاً؛ يقول: "وما يؤكّدُ هذا القولَ أنّنا علمنا أنَّ المحبّةَ ضروبٌ، فأفضلُها محبّةُ المتحابّين في الله عزّ وجلَّ؛ إمّا لاجتهادٍ في العملِ، وإمّا لاتّفاقٍ في أصلِ النّحلةِ والمذهبِ، وإمّا لفضلِ علمٍ يمنحه الإنسانُ" [3] .

فمحبّةُ الإنسانِ لربّه عزّ وجلّ لا تلبثُ أن تنعكسَ إيجاباً على نفسِ المحبّ العاشقِ فيغدوَ محبّاً لكلّ ما هو جميلٌ خَيِّرٌ؛ فتسمو المحبّةُ من محبّةِ اللّذّةِ والنّفعِ إلى محبّةِ الفضلِ؛ ويغدو الإنسان عاشقاً لنشرِ الفضيلةِ والعلم، ساعياً وراء عملٍ ينفع به البلادَ والعبادَ، وإنّ هذه لَأعلى درجات المحبّة وأعظمها وأشرفها.

نتائج البحث:

- تعدّ الرّؤيا في المنامِ أدنى درجاتِ الحبّ وأشدّها هشاشةً ورقّةً بحسبِ رؤيةِ ابن حزمٍ.
- يأتي الحبّ بالوصفِ في الدّرجةِ الثّانيةِ بعد رؤيا المنام من حيثُ القّوة والمتانة، ويكون بأن يعشقَ المرءُ أوصافاً قد سمعها غير أنّه لم يعاينْها.
- أنكر ابن حزمٍ الحبّ بالرّؤيا والحبّ بالوصفِ لاقتصارهما على حاسّةِ السّمعِ وعدمِ إشراكِ حاسّةِ البصرِ، وعدّهما من البنيان المتصدّعِ الهاوي.
- أيقنَ ابن حزمٍ أنّ العينَ فضلُها ظاهرٌ على سائرِ الحواسِ؛ فلا يمكنُ للمرْءِ أن يقعَ على شبيهِه إلّا بالنّظرِ إليه، وهو الخطوةُ الأولى والرّئيسةُ التي تمهّد لالتقاءِ الأرواحِ بعد ذلك.

---

[1] – طوق الحمامة: ابن حزم، ص ٧.

[2] – يُنظر: المصدر السّابق، ص ١٤٧.

[3] – المصدرنفسه، ص ٧.

- أطلقَ ابن حزمٍ على الحبّ من غيرِ نظرةٍ اسمَ الحبّ مع المطاولة وهو عنده حبٌّ ثابتٌ لأنّه مبنيٌّ على قاعدةٍ ثابتةٍ متينةٍ.
- إنَّ الحبَّ الرّوحانيَّ هو أعلى درجات الحبّ الأنسيّ التي ذكرها ابن حزمٍ، وهو مرتبطٌ بصورةٍ مباشرةٍ بمبدأ المشاكلةِ والمجانسةِ.
- الحبّ الإلهيّ عند ابن حزمٍ أعلى درجاتِ الحبّ وأسماها منزلةً غير أنّه لم يفصّل الحديث عنه في مؤلّفه خشية أن يشتّت ذهن القارئ.

المصادر والمراجع:

١. *إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي*، دار السلام، القاهرة– مصر، ط٢.

٢. *الأخلاق والسير ومداواة النفوس*: ابن حزم الأندلسي، تح: إيفا رياض، مر: عبد الحي التركماني، دار ابن حزم– جو طنبورج، ١٤٢٠هـ.

٣. *رسائل إخوان الصّفاء وخلان الوفاء*، إعداد وتحقيق: د. عارف تامر، بيروت– لبنان، ١٩٥٧م.

٤. *رسائل الجاحظ*: أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة– مصر، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٥. *روضة المحبّين ونزهة المشتاقين*: ابن قيّم الجوزيّة الإمام شمس الدّين محمّد بن أبي بكر الحنبلي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

٦. *طوق الحمامة في الألفة والأُلاف*: ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد.

٧. *لسان العرب*: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت– لبنان.

٨. *معجم الفروق اللغوية*: أبو هلال العسكري ونور الدين الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم– إيران.

٩. *المعجم الفلسفي*: جميل صليبا، منشورات ذوي القربى.

١٠. *مفردات في غريب القرآن*: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت– لبنان.

١١. *مقاييس اللغة*: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، اتّحاد الكتاب العرب، القاهرة– مصر، ٢٠٠٢م.

١٢. *الموسوعة العربية الميسرة والموسعة*: ياسين صلاواتي، مؤسسة التاريخ العربي.